The North African Journal of Scientific Publishing (NAJSP)
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي (NAJSP)
E-ISSN: 2959-4820
Volume 3, Issue 1, January - March 2025
Page No: 66-81
Website:
https://najsp.com/index.php/home/index
SJIFactor 2024: 5.49 معامل التأثير العربي (AIF) 2024: 0.71 ISI 2024: 0.696

نفوسة والنفوسيون في طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني

نادية عيسى المُقدَّمي[1*]
[1]كلية التربية، جامعة نالوت، نالوت، ليبيا

Nafusa and the Nafusians in the Classes of Sheikhs in Islamic Maghreb by Al-Darajin

Nadiya Issa Almqadami[1*]
Faculty of Education, Nalut University, Nalut, Libya

*Corresponding author noorseenissa@gmail.com *المؤلف المراسل

تاريخ الاستلام: 2025-01-05 **تاريخ القبول:** 2025-02-26 **تاريخ النشر:** 2025-03-08

الملخص

يُعدّ كتاب 'طبقات المشائخ بالمغرب' للدرجينيّ، المتوفَّى حوالي سنة (670هـ)، مرجعًا مهمًا في كتب الرجال لعلماء الإباضيّة في المغرب الإسلامي، وقد استند إليه كتّاب السير والتاريخ في المنطقة. وخلال تصفُّحي للكتاب، وجدت ثروة من المعلومات عن علماء نفوسة الذين أثروا الفكر الإنساني بإسهاماتهم، مما دفعني للبحث في دورهم في التمسك بالدين ونشر المذهب الإباضي وبخاصّة بعد سقوط الدولة الرستميّة. وتتركّز إشكاليّة البحث على اهتمام الدرجينيّ بعلماء نفوسة والترجمة لهم، والعلوم التي نبغوا فيها، وتأثيرهم في البيئة المحيطة. وتكمن أهميّة البحث في إبراز تأثير هذه المنطقة في الحركة التاريخيّة للأمة الإسلامية وتأسيس الدولة الرستمية، وتمّ تقسيم البحث إلى مقدّمة لعرض فكرة البحث وهيكلته وأهدافه، وتمهيد للتعريف بنفوسة والدرجيني، ومبحثين: الأول يتناول منهج الدرجينيّ في عرض سير علماء نفوسة، والثاني يسلّط الضوء على مكانة النفوسيّين في طبقات الدرجيني. وتختتم الخاتمة بعرض نتائج البحث وتوصياته، معتمدًا في البحث على المنهج النقلي التاريخي والتحليلي والاستنباطي والمقارن، مع الاعتماد علىٰ مصادر ومراجع في السير والرجال والمعاجم.

الكلمات المفتاحية: نفوسة، النفوسيّون، الدرجيني.

Abstract

The book 'Tabaqat al-Mashayikh bil-Maghrib' by Al-Darjīnī, who passed away around the year 670 AH, serves as a significant biographical reference

on Ibadi scholars in the Islamic Maghreb. It has been widely relied upon by historians and biographers of the region. While exploring the book, I encountered a wealth of information about the scholars of Nafusa, who greatly contributed to intellectual thought. This discovery motivated me to examine their role in preserving the faith and spreading the Ibadi doctrine, especially after the fall of the Rustamid state. This study explores Al-Darjīnī's particular focus on Nafusa scholars, his biographical documentation of them, the fields of knowledge in which they excelled, and their influence on their surrounding environment. The significance of this research lies in highlighting the impact of this region on the historical development of the Islamic nation and its role in the establishment of the Rustamid state. The research is structured as follows: an introduction outlining the study's objectives and framework, followed by a preliminary section introducing Nafusa and Al-Darjīnī. The first chapter analyzes Al-Darjīnī's methodology in presenting the biographies of Nafusa scholars, while the second chapter examines the status and contributions of these scholars as documented in *Tabaqat al-Darjīnī*. The study concludes with a summary of key findings and recommendations. This research adopts a historical, analytical, deductive, and comparative approach, drawing upon primary sources and references in biography, history, and lexicography.

Keywords: Nafusa, Nafusian scholars, Al-Darjīnī

مـقدّمـة

الحمد لله الذي أنار سبيل المتقين، وهدى الأنام إلى ما فيه الحق اليقين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأكرم مبعوث للعالمين، وعلى من سار على نهجه إلى يوم الدين.

فقد حث القرآن على الاهتمام بالعلم تحصيلا، وبأهله إجلالا وتوقيرا، وترك لنا العلماء تراثا زاخرا، في فضل العلم ومقام العلماء، ومن هؤلاء العلماء الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني الذي سجل سير هؤلاء العلماء في كتابه " طبقات المشائخ بالمغرب "؛ ليكونوا نجوما تهتدي بها الأجيال اللاحقة للسير بهذه الأمة إلى أنوار اليقين، إلى الاستقامة وإعادة بناء الصرح، وهناك جملة من الدواعي والغايات دفعت بي إلى اختيار هذا الموضوع، ومنها رغبتي في التعرف على المذهب الإباضي وعلمائه، بل الغوص فيه؛ إذ إنني وأنا متخصصة في العلوم الشرعية لا أعرف عن المذهب إلا اسمَه وبعضَ أحكامه العملية، وأودّ أن يعلم القارئ الكريم، والمستمع الرصين، أنّ الباعث لي على هذه المعرفة "لا يرجع إلى عصبية مذهبية، تضيق بالتفكير المنطلق في دين الله من سائر الفرق، ولا إلى جمود في حبّ وطن ضيّق لا يتسع لبلاد الإسلام"[1]، وإنما يرجع ذلك للرغبة في التعرف على

[1]- الإباضية في موكب التاريخ، على يحي معمر، مراجعة: سليمان بن الحاج إبراهيم بالبزبز، مكتبة الضامري: سلطنة عمان، ط: 3، 1429هـ - 2008م. ص: 19.

أصول المذهب وبعض فروعه، وتبيُّن مدى اتّصاله بالقرآن والسنّة من خلال البحث عن دور نفوسة والنفوسيين في التمسّك بالدين، ودورها في حمل مشعل الرسالة في نشر المذهب والحفاظ عليه خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية.

أمّا عن إشكاليّة البحث فهي تتعلّق بمدى اهتمام الدرجيني بعلماء نفوسة والترجمة لهم في مصنّفه "طبقات المشائخ بالمغرب"، وكذلك بالعلوم التي نبغ فيها علماء نفوسة، وتأثيرهم في البيئة التي عاشوا فيها، ومدى تأثير علمهم ومصنّفاتهم في المغرب الأوسط، وفي الأمّة الإسلاميّة كلّها، وترجع أهمّيّة هذا البحث إلىٰ إظهار وبيان ما كان في هذه البقعة من الأرض من تأثير في الحركة التاريخية للأمّة الإسلامية عامّة، وتأسيس الدولة الرستميّة في المغرب الأوسط خاصّة.

ولعرض مادة هذا البحث اعتمدت علىٰ المنهج النقلي التاريخي في عرض علماء نفوسة وحياتهم والعلوم التي نبغوا فيها، كما أعملت المنهج التحليلي والاستنباطي والمقارن في حصر أعدادهم، وهل ترجم الدرجيني لكل علماء نفوسة قبل زمانه، أم أنه ترجم لبعض وغفل عن بعض؟ وقد تم عرض هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين، وتحت كلّ مبحث مطلبين:

فالمبحث الأول بعنوان:

منهج الدرجيني في عرض سير علماء نفوسة:

وسيتم عرض هذا المبحث تحت مطلبين أساسيين:

1. مميزات منهج الدرجيني في عرض سير علماء نفوسة.
2. المآخذ التي تؤخذ عليه.

أما المبحث الثاني فهو بعنوان:

النفوسيون في طبقات الدرجيني، وسيتم عرضه تحت مطلبين هما:

1. مكانة النفوسيين بين المترجم لهم في الكتاب:

ويكون ذلك بحصر عددهم وتحديد النسبة بينهم وبين الأعلام المترجم لهم في الكتاب، والمقارنة بينهم وبين غيرهم من علماء المذهب من خلال تأثيرهم في بيئتهم، ومكانتهم العلمية والعوامل التي أثرت على ذلك سلبا أو إيجابا.

2. آثار علماء نفوسة المترجم لهم في الكتاب:

ويكون ذلك بحصر هذه الآثار، ومقارنتها بآثار علماء الإباضية غير النفوسيين، وهل هذه الآثار في نفس المرتبة أم أعلى أم أقل، والعوامل التي أدت إلى ذلك.

تمهيد

نفوسة أو "إنفوسن" بالأمازيغية هو الاسم التاريخي الذي أطلق على مجموع الفرق القبلية التي سكنت وتسكن الجبل الغربي لمدينة طرابلس بليبيا. ويضم الجبل مديريات ثلاثة تنتمي إليها أغلب الفرق الاجتماعية التي تشكل هذه المجموعة القبلية، وهي مديرية يفرن، وفساطو، ونالوت، وقد يضاف إليهم في بعض الأحيان القسم الشرقي الذي تشكّله مديرية ترهونة ومسلّاتة [1].

وقد اقترن اسمهم بالمذهب الإباضي، وكان لهم دور كبير في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ المغرب خاصة؛ نظراً لموقع نفوسة الجغرافي، فهي الرابطة بين مشرق العالم الإسلامي والمغربي [2]، وكان لها بصمة في التاريخ السياسي والديني والعلمي للأمة الإسلامية في هذه الرقعة الجغرافية.

---

[1]- ينظر جبل نفوسة، مسعود مزهوي، المكتبة الشاملة، 1.

[2] - ينظر المصدر السابق.

فمن الناحية السياسية ثبت أن لجبل نفوسة دوراً بارزاً في قوة الدولة الرستمية، فقد كانت نفوسة هي الساعد القوي الذي يقف في وجه المتربصين بها من المشرق، وكانت مصدر الجندية التي تقوم بحماية هذه الدولة، ويمكن القول: إن الجبل هو الدولة الرستمية والدولة الرستمية هي الجبل؛ ولذلك ما ضعفت الدولة الرستمية إلا بعد أن تعرض الجبل لنكبة مانو سنة (283هـ) التي حُدّ فيها سيف نفوسة، وأصبحت الإمامة تعيش مرحلة التقهقر والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة للمد الشيعي[1].

أما من الناحية الدينية فقد كان للجبل الفضل في الحفاظ على استمرارية المذهب الإباضي بعد سقوط إمامة الظهور، وإحياء الإمامة بعد اندثارها، كما كان للنفوسيين السبق في إنشاء نظام الحلقة الذي تطوّر إلى نظام العزّابة. وما كان لهذا الأخير من فضل في الحفاظ على تماسك المجتمع الإباضي وحفاظه على مذهبه إلى وقتنا الحاضر.

هذا من ناحية الحفاظ على المذهب أمّا من ناحية الدعوة ونشر الإسلام فقد كان للنفوسيّين الفضل الأكبر في نشر الإسلام في بلاد السودان[2].

أما من الناحية العلميّة فقد كان الجبل يعج بالطلاب الذين يفدون إليه من مختلف مواطن الإباضية في بلاد المغرب، ونشطت حركة التأليف في ذلك الزمن، فخلّف النفوسيّون المئات إن لم نقل الآلاف من الأسفار في مختلف فنون العلم والمعرفة، وساهمت حلقات نفوسة العلميّة في انتشار العلم. وإذا كانت تاهرت معدن الدواب والكراع، فإنّ الجبل كان معدن العلماء ورجال الفكر[3].

ولا يفوتني في هذا العرض الإشارة إلى أصل الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ـ رحمه الله ـ الذي يرجع إلى هذه البقعة من الأرض "نفوسة".

وقد كان كتابه "طبقات المشائخ بالمغرب" أحد الكتب التي اعتنت بعرض سير أعلام الإباضيّة بالمغرب بل أهمّها، وهو من أمتع كتب التراجم وأجلّها، يجد فيه القارئ تراجم لعلماء أجلّاء فضلاء، وقادة عظماء أسهموا في صنع الواقع التاريخي إسهاما وافرًا ونزيهًا، كما يجد فيه صورًا من تطبيقات الشريعة الإسلاميّة الحنيفيّة، جسّدتها حياة هؤلاء المشائخ، فهو صورة صادقة لأعلام المذهب على مدار سبعة قرون.

وقد سار الشيخ الدرجيني في تأليفه لكتابه هذا على منهج خاصّ تميّز به عن غيره في عرض سير العلماء بما فيهم علماء نفوسة.

فما هي معالم منهج الدرجيني في عرض سير مشائخ نفوسة؟ وبماذا تميّز منهجه عن مناهج غيره من العلماء؟ وكيف تناول الأحداث التي مرّ بها أثناء عرضه للسير؟ وما أهمّ المسائل التي تطرق إليها أثناء هذا العرض؟.

المبحث الأول: منهج الدرجيني في عرض سير علماء نفوسة

وسيتم عرض هذا المبحث تحت مطلبين أساسيين:

1. مميزات منهج الدرجيني في عرض سير علماء نفوسة.
2. المآخذ التي تؤخذ عليه.

تختلف صياغة المادة الموجودة في ترجمة ما من تراجم مشائخ المغرب عامة، ومشائخ نفوسة خاصة في طبقات الدرجيني، طولا وقِصرا، أو عرضا لمناقب الشيخ وأعماله، حسب طبيعة المترجَم له، وقيمته العلمية، أو مكانته السياسيّة من جهة، وتتوحّد في الأسس العامة لمكوّنات الترجمة من جهة أخرى. ولا نجد تناقضا في ذلك، فالدرجيني يُعنى في معظم التراجم بذكر اسم المترجَم له ونسبه، ولقبه وكنيته، وينسبه غالبا إلى موطنه ومسقط رأسه، فيقول: النفوسي، الوارجلاني، الوسياني، المزاتي.

---

[1] - ينظر جبل نفوسة، مسعود مزهودي، 416,417.

[2]- ينظر جبل نفوسة، مسعود مزهوي، 416,417.

[3]- ينظر المصدر السابق، 417.

وقد صرّح الدرجيني في صدر كتابه "طبقات المشائخ بالمغرب" أنّه قسمه إلى جزئين:

1. الجزء التاريخي: وهو الجزء الأول من الكتاب، خصّصه لنشأة المذهب ودخوله بلاد المغرب، وفصّل الحديث عن الدولة الرستمية وسيرة أئمتها، وما لاقته من فتن ومشاكل داخلية وخارجية، أدّت في نهايتها إلى سقوطها وزوالها على يد أبي عبد الله الشيعي مؤسّس الدولة الفاطميّة سنة (297هـ)[1].

2. جزء السير: وهو الجزء الثاني. ونظّمه على الطبقات ـ وذلك ظاهر من اسمه ـ فجعله في اثنتي عشرة طبقة، وحدّد لكل طبقة زمنا معيّنا وهو خمسون عاما، الطبقة الأولى للصحابة رضوان الله عليهم ولم يترجم لهم؛ وعلّل ذلك بشهرتهم وتوافر تراجمهم في مصنّفات أخرى، فبدأ بالطبقة الثانية (50 ـ 100هـ)، وهي طبقة التابعين ومؤسّسي المذهب، ثم مَن بعدهم إلى زمن الدرجيني ـ رحمة الله عليه ـ وقد التزم بهذا التقسيم في كتابه ولم يدخل عالما من طبقة إلى طبقة قبله، فهو لا يجمع تراجم الأسرة الواحدة في طبقة واحدة، بل يترجم لكل منهم في الطبقة التي ينتمي إليها غالبا.

ومن خلال دراستي للكتاب تبين لي أن الشيخ الدرجيني ـ رحمه الله ـ سار وفق خطة مرسومة في الانتقاء وعرض التراجم، سواء أكان ذلك في انتقاء المترجم لهم، أم في انتقاء المادّة المذكورة في كلّ ترجمة، وقد انطلق في كلّ ذلك من ميزانه الذي وزن به المترجم له من جهة، والأخبار التي تجمّعت لديه عنه من جهة أخرى، ولعلّنا نستطيع من خلال تسمية الكتاب بـ "طبقات المشائخ بالمغرب" أن نتبيّن أساسا مهمّا من أسس انتقاء المترجم لهم عند الدرجيني ألا وهو "المشيخة" التي تُعرَّف ببلوغ المكانة الرفيعة من العلم والفضل والرئاسة[2].

وهذا المنهج سار عليه في كتابه كلّه عند عرضه لسير العلماء الذين ترجم لهم النفوسيين منهم وغير النفوسيين، فلم يخصص النفوسيين بمنهج معين.

والمطّلع على هذا الكتاب يجده يحوي إنتاجا معرفيا متنوّعا، في التاريخ والأدب والفقه وعلم الكلام والجغرافيا والمجتمع ... بالإضافة إلى تعريفه بالأعلام، ولا شك أنه في عرضه لسير العلماء عامّة وعلماء نفوسة خاصّة انفرد بمميزات تميز بها عن باقي كتب أقرانه، كما أن عليه مآخذ تؤخذ عليه، ومن تلك المميزات:

المطلب الأول: مميزات منهج الدرجيني في عرض سير علماء نفوسة

تميز كتاب " طبقات المشائخ بالمغرب " بمميزات أظهرت تفرُّده عما سبقه من المؤلفات المتعلقة بالتراجم، ومن هذه المميزات:

1. أنه قسّم كتابه إلى طبقات، وسدّ بهذا التقسيم ثغرة طالما شكا منها كثير من الباحثين في التاريخ ومناقب الرجال؛ ذلك لأن معرفة العصر الذي ولد فيه العالم والزمن الذي توفي فيه بخاصة، يعطي الباحث فكرة مسبقة عن شخصية هذا العالم خاصة إذا كان من التابعين أو تابعيهم، ومع أن الشيخ الدرجيني لم يهتم بذكر تاريخ مولد العالم ونشأته وتاريخ وفاته، إلا أنّ ما قام به خفّف على الباحثين الكثير من الجهد والتعب في البحث عن زمن العالم صاحب الدراسة، إذ أن كتب تراجم الإباضية التي قبله لم تؤرخ ولم تبيّن الزمن الذي كان فيه العالِم حياً.

2. من اللافت للانتباه عند دراستي لتراجم الدرجيني للنفوسيين وغيرهم أسلوبه في عرض مناقب العلماء. فهو من خلال ترجمته للعالم يوثّق عملية رواية العلم والدّين، ويؤرخ لذلك الزمان والمكان، فهو لا يؤرّخ للعالم فحسب، بل يسجّل سير المشائخ، ويصوّر حياتهم اليومية، ويبيّن عقيدتهم وأخلاقهم ونبوغهم العلمي والفقهي من خلال تصوير مشاهد من حياتهم ومواقف قاموا بها وعاشوها لنصرة مبادئهم وإشاعتها،

---

[1]ـ ينظر طبقات المشائخ بالمغرب، أبو العباس الدرجيني، 1: 95.

[2]ينظر معجم لغة الفقهاء، المكتبة الشاملة، 320.

كما يبيّن لنا صورة المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه من خلال عرض نشاطهم الاقتصادي، وعلاقاتهم بأسرهم، ومع عامة الناس في بيئتهم، وأقضيتهم، ومجالس العلم التي كانوا يغشونها، والأحكام أو المواقف الفقهية التي تصدر عنهم. كما يصوّر لنا مشاهد توضّح قوّة إيمان العالم ورغبته في الآخرة، ومدى اجتهاده في العبادة، وسعيه بقضاء مصالح العباد. هذه المشاهد نجدها في سير كثير من علماء نفوسة، ومنها سيرة أبي ميمون الجيطالي من علماء الطبقة الخامسة (200-250 هـ).

3. الشيخ الدرجيني يعتني بذكر أثر العالم على البيئة التي يعيش فيها عناية واضحة، ويهتم بذكر مناقب الشيخ وأخلاقه من تقوى وإيمان وإخبات وكثرة طاعات، وعلم واجتهاد وسعي في العبادات. ومن هؤلاء العلماء الشيخ أبو عبد الله محمدٌ بنُ بكر بنِ أبي بكر بن يوسف الفرسطّائي النفوسي من علماء الطبقة التاسعة (450-500هـ)[1]، أشاد به الدرجيني، وذكر أن له تآليف كثيرة، وأشار إلى بعض كراماته، وروى بعض المواقف التي تدل على مكانته وعلمه وحكمته وأهمَّ آثاره، وهو تأسيسُه لنظام العزابة، الذي بفضله تمكنت الإباضية من المحافظة على المذهب.

4. يعتني الشيخ الدرجيني بعرض بعض الأحكام الفقهية ويعقب عليها، كما يهتم بذكر بعض المسائل الفقهية المختلف فيها أو النوازل المحدثة إذا أفتى فيها العالم بفتوى ترفع الحرج والمشقة عن الناس، ومن ذلك ما أورده الدرجيني[2] في سيرة أبي يعقوب بن سهلون ـ رحمه الله ـ فقد حدثت مسألة شنيعة في زمانهم، وهي "أنّ امرأة ادّعى تزوُّجَها رجلان وأتى كلُّ واحد منهما ببيّنة على صحّة التزوُّج، فترادّ الشيوخ المسألة حتى انتهت إلى أبي يعقوب، فقال: حرُمت على الأول والأخير، ورجال الدنيا والآخرة إلا أن تتوب فتحلّ لرجال الآخرة"[3].

5. يصوّب الدرجيني ما وقع فيه العلماء من زلّات، ويعلّق على المسألة، ويتعلّل لهم، ويبحث لهم عن العذر، ويبيّن الهدف من سرد زلّة العالم. فها هو ينقل اعتذار أبي نوح لأبي مسور يصلتين النفوسي ويستصوبه ويستحسنه وذلك عندما نقل ما حفظ على الشيخ أبي مسور يصلتين أنه قال: "إذا وقعت الفتن أمسكنا أيدينا، وأموالنا، وألسنتنا وعيوننا، وأرجلنا، ووكّلنا أمر قلوبنا إلى الله ـ عز وجل ـ وفوّضنا أمرنا إليه"[4]. فاعتذر أبو نوح لأبي مسور بأنّ الشيخ في غير جيله مخطّأٌ ولو أنَّه مصيب، واستحسن الشيوخ هذا الاعتذار، "وحفظوه عنه، وأبقوْه، وتحققوا صوابه، وأيقنوه"[5].

6. ولا يخفى على كل من اطلع على كتاب الدرجيني اتّصاف صاحبه بالأمانة العلميّة حيث ذكر مصادره التي استقى منها أخباره ومنها كتاب تاريخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر- ؏- وسيرة أبي سفيان محبوب بن الرحيل، أو سير أبي الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني.

7. وإلى جانب هذا كلّه اعتنى الدرجيني بعرض مواقف تدلّ على صدق إيمان مشائخ نفوسة وورعهم وتقواهم، بأسلوب أدبي بليغ وقلم متقن متمكّن يسافر بالقارئ إلى ذلك الزمان فترتسم في خياله صورة تلك البيئة المفعمة بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، وهذا بحدّ ذاته يقوّي في القارئ المؤمن الجانب الروحي والأخلاقي، ويحثّه على التمسّك بالقيم الإسلاميّة والتضحية لأجلها.

---

[1]- ورد في معجم أعلام الإباضية بالمغرب أن وفاته كانت سنة (440هـ)، ينظر معجم أعلام الإباضية بالمغرب، 1: 305.

[2]- ينظر طبقات الدرجيني 2: 116،117.

[3]- المصدر السابق، 2: 246، 247.

[4]- المصدر السابق، 2: 129.

[5]- المصدر السابق، 2: 130.

8. كما لا يخلو عرضه لسير أعلام نفوسة من ذكر بعض كرامات الأولياء التي هي بين الحقيقة والخيال، ولا تخلو تراجمه من استطرادات مهمّة، ومحاورات علميّة قيّمة، لاسيما إذا كانت تتصل بالمترجم له مباشرة، أو بسبب قريب منه.

وهكذا ينتقل بنا الشيخ الدرجيني في تراجمه هذه من تاريخ إلى سيرة إلى مسائل شرعية إلى مُلَحٍ ونكت فكريّة وأدبيّة[1]، إلى غير ذلك مما يجعل الكتاب أكثر متعة وإفادة للقارئ.

المطلب الثاني: المآخذ التي تؤخذ عليه

مع ما امتاز به كتاب "طبقات المشائخ بالمغرب" للدرجيني من مميّزات إلا أنّه يؤخذ عليه بعض الأمور أجملها فيما يلي:

1. الدرجيني في عرضه لتراجم العلماء النفوسيين وغيرهم يكتفي بذكر اسم العالم وكنيته فقط، ولا يذكر شيئا عن البيئة التي نشأ وترعرع فيها، ويهمل ذكر سنة وفاة العالم، فلا يكاد يذكر ذلك إلا نادراً، وذلك إذا كان العالم مشهوراً فائق الشهرة في الإمامة كأبي عبيدة عبد الحميد الجناوني الذي استشهد في معركة "مانو" فذكر سنة وفاته (283 هـ)، أو كان ذا مكانة عالية مرموقة في العلم والتقوى والورع كأبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطّائي مؤسّس قواعد العزّابة الذي توفى سنة (440هـ)، أو لطول عمر العالم مثل أبي خليل البدْرَكَلي الذي عمّر وتوفي عن عمر يناهز 120 عاماً وهو محفوظ العقل[2]، ومعلوم أنّ لمعرفة تاريخ الوفاة أهميّة كبيرة في التراجم، وخاصّة إذا كان العالم من رواة الحديث، لأنّ تاريخ الوفاة يحدّد على وجه الدقّة الزمن الذي عاش فيه الراوي، ويبيّن إمكانيّة اللقاء بينه وبين شيوخه الذين روى عنهم، أو تلاميذه الذين أخذوا عنه.

2. وكان بعض العلماء يشدّدون في ذكر تاريخ الوفاة، فقد كان ابن خلّكان يسقط الترجمة كلّها إذا لم يوفّق في الوقوف على زمن الوفاة، ويعتذر عن ذلك في قوله عن بعض التراجم "ولم أظفر بتاريخ وفاته حتى أفرد له ترجمة "[3].

3. ويمكن أن نعلّل لهذا الترك بتقسيم الطبقات الذي استغنى به الدرجيني عن ذكر سنة الوفاة، وكذلك قد يكون الاهتمام بهذه الجزئية خاصّاً بتراجم الرواة والحفّاظ والمحدّثين، لا بسير العلماء في فروع العلوم الشرعية الأخرى.

4. ويؤخذ عليه إهمال ذكر شيوخ العالم وتلاميذه، فهو نادراً ما يفعل ذلك، والملاحظ أنه يهتم بذكر الشيوخ إذا تتلمذ المترجم له على حملة العلم الخمسة كما في ترجمته للشيخ أبي خليل البدْرَكَلي قال: "ذكر أبو الربيع أنّ أبا خليل رحمه الله يقول: والله ما أنتم إلا على الجادة، ولا تركتكم إلا على الواضحة النيّرة، وما بيني وبين رسول الله ﷺ غير ثلاثة لم أرهم، وذلك أنه أخذ العلم عن الخمسة، والخمسة أخذوا عن أبي عبيدة، وأبو عبيدة أخذ عن جابر وغيره من التابعين، وجابر عن ابن عباس وغيره من الصحابة - رضي الله عنهم – وروايتهم عن رسول الله ﷺ"[4].

5. أو كان التلميذ نجيباً نجابة جعلت شيخه يميّزه عن أقرانه ممن يدرسون معه وذلك كما في ترجمة أبي ذر أبان بن وسيم النفوسي الذي تتلمذ على يد الشيخ أبي خليل البدْركلي[5].

6. ويؤخذ عليه العموم والشمول في وصف عِلم الشيخ ومناقبه، فالدرجيني يعمّم وقليلا ما يحدّد العلم الذي نبغ فيه الشيخ المترجم له، ومن ذلك قوله في ترجمته لأبي ميمون الجيطالي: "وكان ذا جدٍّ في

1- ينظر المصدر السابق، 1: 111.
2- ينظر طبقات المشائخ بالمغرب، 2: 113.
3- وفيات الأعيان، ابن خلكان، 2: 416.
4- ينظر طبقات المشائخ بالمغرب، 2: 112.
5- ينظر طبقات المشائخ بالمغرب، 2: 115.

العلم والاجتهاد، وسعيٍ في العبادة ومنافع العباد، وكان ممّن يعدّ في الشيوخ، وممّن كان قدمه في العلم ذا رسوخ"[1]، ولم يذكر بعد هذا الوصف هل كان فقيهًا أم مفسّراً أم محدثاً أم مؤرخاً، أم أنه كان عالما موسوعيّا، وهذا لا شكّ مهمّ في التعريف بالعالِم وبخاصّة في عصرنا هذا الذي تميّز بالتخصّص العلمي ومن ثمّ النبوغ فيه.

7. ويؤخذ عليه أيضا إهمال ذكر أسماء مؤلّفات وآثار العالم الذي يترجم له، خاصّة إذا أشار في ترجمته إلى آثار ومؤلفاتٍ عديدة في علوم متنوعة مختلفة للعالم. ومن ذلك ما ورد في ترجمته للشيخين: سليمان بن زركون، وسليمان بن ماطوس حيث قال: "ولكلٍّ منهما تآليفُ في علوم الدين"[2]، ولم يذكر اسم مصنّف واحد من تصانيفهما، وكذلك في ترجمته للشيخ أبي سهل الفارسي حيث قال: "حتى دوّنت الدواوين من كلامه، وانتشر في الآفاق حسن نظامه، وقد أعجز المراثي بما أوعظ، فلها بذلك في النفوس أحسن موقع وأوفر حظ، وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر، وأكثره بالصواب حدا، فقف على دواوينه تكن عنه مترجما ولا ترمها إن لم تجد لها مترجما"[3]، وقد يعلَّل ذلك بعدم وصول أسماء الكتب إليه[4].

8. ويؤخذ عليه إهمال تخصيص قسم لسير عالمات نفوسة، فالشيخ مقلٌّ في عرض سيرهنّ، ولا يذكرهنّ إلا إذا كان الموقف يستدعي ذلك، كالموقف الذي حدث عند تولية أبي عبيدة عبد الحميد الجنّاوني فأراد تجنب الولاية " فاجتمعت عليه أيضا الجموع فقال لهم انتظروني، فغاب عنهم ما يدرون ما يحاول فسار إلى عجوز نفوسية مشهورة بالعلم والدين والصلاح، فاستشارها في تحمّل ما ثُقِّلد أو الفرار، فقالت له: هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلّفت به وأحقّ بتقليد ما تقلّدت؟ قال : أمّا في أمور الرجال فلا، قالت فادخل إذاً فيما قلدك الإمام، وإلا فإنّي أخشى أن تهشّم عظامك في نار جهنم، فقد قامت عليك الحجة، فرجع إليهم وتقلّد ما قلّده من أمورهم فكانت جماعة نفوسة يذكرون فضلها، ويعترفون بها"[5]، وهي نانّا مارن العالمة النفوسية الفذّة الورعة[6].

9. فالدرجيني لم يفرد للنساء قسما للترجمة لهن، أو يقسمهن حسب الطبقات، وقد ورد في كتب أخرى تراجم عديدة لعالمات نفوسة.

وختاما فالملاحظ على تراجم الشيخ الدرجيني ـ ç ـ في كتابه "طبقات المشائخ بالمغرب" أنّه مولع بذكر أخلاق العالم ودينه، وتقواه وورعه، وكثرة طاعاته وكراماته، وذلك لأن الشيخ لا يقصد التأريخ للعالم بقدر ما يسعى إلى تصوير حياته وتطبيقه لشريعة الإسلام: نظام حكم، ومنهج حياة، وسلوك أفراد وتعامل مجتمع. ومع ذلك فقد احتفظ الدرجيني في طبقاته بمعلومات مفيدة عن علماء الإباضية الأوائل، واشتمل كتابه على غرائب الأخبار، وعجائب مناقب السلف الأخيار، وهذه قد تغني الباحث عما ذكر عنه من مآخذ.

وما سبق على كتاب الطبقات للدرجيني من مؤاخذات لا يقلّل من قيمة الكتاب، ولا يضع من قدر مؤلِّفه، وهذه المؤاخذات قليلة في جانب المميزات الكثيرة التي تميّز بها. وحسْبُه نبلًا أن عدّت معايبه، بل هكذا طبيعة البشر، وقد يكون للمؤلف عذر فيها، أو محمل حسن يحمل عليها، غير أنّ ما ذكر هنا هو من باب الأمانة العلمية لا من باب الطعن والانتقاص من قدر المؤلّف، وقد ألمح المؤلف إلى ما قد يعتري كتابه من نقص وذلك دليل على ثقته بنفسه، ودليل على تواضعه وجميل خصاله، قال عندما طلب منه من وجبت طاعته أن يؤلف مصنفا في سير علماء الإباضية بالمغرب: "فبادرتُ لإجابة سؤاله إيجاباً لعِظَم حُرمة

---

[1]- المصدر السابق، 2: 107.
[2]- المصدر السابق، 2: 170.
[3]- المصدر السابق، .
[4]- ينظر ترجمة الشيخ حسنون بن أيوب في المصدر السابق، 2: 155.
[5]- طبقات المشائخ بالمغرب، 1: 69.
[6]-المصدر نفسه.

السؤال، وإن كان ينبغي أن أكون ممن استغفر واستقال، فرأيت عصيانه من النكير، فأخذت في تهذيب الكتاب المذكور... ولم أحفل بعيب عائب، ولا بشكره، فإن ظفرت بموافقة من أجبت سؤاله فقد ظفرت بالمرغوب، وإن قصرت فلا غرو لإبطاء السُّكَيْت[1] عن شأو المجلَى"[2]

المبحث الثاني: النفوسيون في طبقات الدرجيني

وسيتم عرضه تحت مطلبين هما:

1. مكانة النفوسيين بين المترجم لهم في الكتاب.
2. آثار علماء نفوسة المترجم لهم في الكتاب.

شهد العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري ظهور قوة إسلامية في المغرب العربي في جبل نفوسة، ومما لا شك فيه أن هذه القوة أثمرت تطورا وتقدّما حضاريّاَ، وذلك لا يكون إلا بما أحرزته من تقدم في حياتها العلمية، فالحياة العلمية من أبرز روافد الحضارة لدى الأمم؛ لأنها تُعنى بإظهار نشاط العلماء العلمي والفكري، كما تسهم في الكشف عن العناية التي أولاها العلماء لتلك العلوم.

والنفوسيون في نهضتهم كغيرهم من المجتمعات أوْلوْا الحياة الفكرية والثقافية اهتماماً بالغاً، "ولانبالغ إذا قلنا: إن علماءهم أبدعوا في الميدان، بخاصة في العلوم الدينية، ومما يدعم كلامنا ذلك التراث الضخم الموزّع بين المكتبات"[3].

وسيتم في هذا المبحث التّعرف على بعض العلماء النفوسيين ومكانتهم بين زملائهم المترجم لهم في طبقات الدرجيني بحصر عددهم، والتعريف بمكانتهم العلمية، والمجالات العلمية والشرعية التي تقدّموا فيها، وأثرهم على بيئتهم، وآثارهم التي خلّفوها من ورائهم.

المطلب الأول: مكانة النفوسيين بين المترجم لهم في الكتاب

احتلّ النفوسيون مكانة متميزة بين قبائل المغرب العربي الأدنى والأوسط، وبخاصة المكانة الدينية من خلال المذهب الإباضي ومشاركتهم في جميع الأحداث التي مرت بها بلاد المغرب، لذلك عدّت نفوسة من أهمّ القبائل المغربية وأكبرها. وذلك ظاهر في كتاب "طبقات المشائخ بالمغرب" للدرجيني في جزئيه: الأول، والثاني.

فالباحث في الكتاب يلحظ أول ما يلحظ مسارعة أهل نفوسة في نصرة المذهب ونشره إذ إنه لم تمض مدّة زمنية طويلة بعد البعثة العلمية التي ابتعثتها مدن وقرى المغرب العربي عموما، ونفوسة خصوصا لتلقي العلم من معينه الصافي – الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي تلقى علمه عن التابعي الجليل جابر بن زيد - رحمة الله عليهما – لم تمض مدة طويلة بعد عودتهم وبعد استقرارهم جميعاً في طرابلس حتى نشروا ما تلقوه من علوم في مختلف العلوم الشرعية، وبدأت الحلقات العلمية تنتشر تدريجيا في كلّ مدن الجبل وقراه، مثل: جادو، وشرْوَس، ونالوت، وتندمّيرة، وجنّاون، وفسّاطو وغيرها، ولاقت هذه الحلقات إقبالا كبيراً من التلاميذ والطلبة، ومنها تخرج أشهر العلماء النفوسيين وغير النفوسيين.

وقد شجّع العلماء القائمون على شؤون الحلقات العلمية الطلّاب على الالتحاق بحلقاتهم، فكثرت أعدادهم حتى إنّ حلقة علميّة انتظمت ببلاد "أدرج" بالجبل بلغ تعدادها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرؤون العلوم والسير[4].

وهكذا نشأ في جبل نفوسة جيلٌ من العلماء والأئمة، هم حصن الدفاع الأول عن الأمة بعقيدتها وشريعتها، فما مكانة هؤلاء العلماء في طبقات الدرجيني؟ هل كانوا في مستوى أقرانهم وزملائهم في جربة

1- السُّكَيْت: آخر الخيل على الحلبة عكس المجلَّى.
2-المصدر السابق، 1: 3،2.
3- جبل نفوسة، مسعود مزهودي، 359.
4- ينظر: السير، الشمّاخي: 326،171،214.

وجنوب تونس والجزائر؟ أم أنهم تقدّموا عليهم أم تأخروا عنهم؟ هذا ما سيتم عرضه في هذا المطلب بعون الله عند عرض النقاط الآتية:

1- مكانتهم من حيث العدد:

قال الدرجيني عند سرده لأحداث معركة "مانو" سنة (283هـ) مشيراً إلى كثرة علماء الإباضية بالمغرب: "وذكر من يوثق به أنّ عدة القتلى اثنا عشر ألفاً، فمن نفوسة يومئذٍ أربعة ألاف، ومن سائر القبائل ثمانية آلاف، قيل: وكان في القتلى أربعمائة عالم"[1].

فوجود أربعمائة عالم في زمن واحد، إشارة إلى ازدهار العلوم الشرعية في هذا المجتمع وانتشارها فيه واستيعابها أكثر فئاته.

يقول الدكتور محمد حسن محقّق كتاب السير للشمّاخي: "تعد الجبال الواقعة غرب طرابلس البؤرة الرئيسيّة للمذهب الإباضي ببلاد المغرب، ونقطة انطلاق الدعاة في اتجاه الواحات، وبلاد السودان جنوبا وإفريقيّة شمالاً ...، وبدراسة رقمية لعدد علماء الإباضية نجد أن عددهم قد بلغ في الغرب الإسلامي (550) خمسين وخمسمائة عالمٍ، منهم (238) ثمان وثلاثون ومائتا عالم من جبل نفوسة، وهو ما يناهز نصف العلماء المغاربة الإباضية "[2]. وهذا النصّ هو الآخر يدل دلالة واضحة على أنّ عدد علماء نفوسة بلغوا حدّاً عظيماً من الكثرة فقد ناهز عددهم النصف من مجمل علماء الإباضية المغاربة.

وبالاطلاع على كتاب "طبقات المشائخ بالمغرب" للدرجيني نجده يترجم لمائة وثلاثين عالماً وإماماً من أئمة المشائخ بالمغرب، وكان عدد النفوسيين منهم ثلاثين عالماً ـ ومنهم الشيخان عاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي اللذان كانا من حملة العلم الخمسة ـ وهم بهذا العدد يساوون الثلث بالنسبة لعلماء الإباضية المغاربة، وذلك باستثناء الأئمة المترجم لهم من الطبقة الثانية(150هـ - 200هـ) لأنهم من مؤسسي المذهب من التابعيين وتابعيهم وأولهم التابعي الجليل مؤسس المذهب جابر بن زيد، ثم تلميذه أبوعبيدة مسلم بن أبي كريمة، والربيع بن حبيب – رحمة الله عليهم جميعاً – وكان عددهم ثلاثين إماماً.

وأكثر علماء نفوسة الذين ترجم لهم الدرجيني هم من أصل نفوسيّ. عاشوا في نفوسة وتتلمذوا على شيوخها، وقد يرتحلون إلى المشرق أو المغرب للاستزادة من العلم ثم يعودون لبلادهم، وهم كثيرون وأغلبهم كانوا من علماء الطبقات بين الخامسة (200هـ - 250هـ) والسابعة (300هـ - 350هـ)، مثل أبي عبيدة الجناوني، وأبي المنيب محمد بن يانس، وأبي مهاصر موسى بن جعفر وأبي الخطّاب وسيل بن يَسَنَنتن وغيرهم.

ومنهم من كان من أصل نفوسي نشأ وتعلم في نفوسة، ثم رحل إلى تونس (جربة – الحامّة بلاد الجريد) هناك، مثل: سحنون بن أيوب، والشيخ أبو سهيل الفارسي الذي استوطن جزائر بني مرغينان[3].

أمّا العلماء النفوسيّون من الطبقة الثامنة إلى الثانية عشرة، فأغلبهم كانوا من أصل نفوسي نشأوا وتعلّموا في نفوسة ثم رحلوا إلى تونس أو الجزائر وازدادوا فيها علما واتخذوها وطناً، ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي مؤسّس نظام العزّابة، ومنهم من كان من أصل نفوسي ولكنّه نشأ في تونس أو الجزائر وكانت موطنه، ومنهم الشيخ أبو عبد الله أبوالخطّاب عبد السلام بن منصور بن أبي ورزجون المزاتي، وأبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي، ويخلف بن يخلف النفوسي، وابنه علي اللذانِ عاشا في تونس بولاية توزر.

وأودّ أن أشير هنا إلى أنّ الشيخ الدرجيني لم يترجم لجميع علماء نفوسة في طبقاته فلم يترجم للشيخ عمر بن يمَكْتَن الذي كان يعيش سنة(140هـ)، وهو أوّل من جمع القرآن من علماء نفوسة، وأوّل معلّم

---

[1]- طبقات المشائخ بالمغرب 1: 88.

[2]- مقدمة المحقق لسيرة الشمّاخي.

[3]- ينظر: طبقات المشائخ بالمغرب, 2: 169،155-171.

للقرآن في الجبل[1]، وهو من المشهورين، وكذلك لم يترجم لابن جلداسن اللالوتي[2]، وأبي يوسف وجدليش، وأبي هارون الجلالمي، وحسن بن ورمجوج النفوسي[3]، الذي كان حيًّا قبل سنة (471هـ)، وغيرهم من العلماء الذين ترجم لهم علماء التراجم الآخرون.

2- **نبوغهم العلمي**:

لا نبالغ إذا قلنا إنّ جبل نفوسة امتلأ بالعلماء حتى إنه يصعب على الباحث أن يوفيهم حقهم من الدارسة؛ ذلك أنّ الحركة الثقافية التي عمّت الجبل بين القرنين الثاني والسابع أثمرت المئات من العلماء الذين ذاع صيتهم مشرقاً ومغرباً، ومن أشهر هؤلاء العلماء:

أ- أبو زكرياء التّكوتي وكان من علماء الطبقة الخامسة. أشاد به الدرجيني وأورد ما روي عن أحد رجال المشرق عندما زار الجبل ووصل إلى تاهرت وعرف أحوالها وأحوال من بها " فسأله أهل تاهرت عن جبل نفوسة، فقال لهم: الجبل هو أبو زكرياء التّكوتي، وأبو زكرياء هو الجبل"[4].

ب- ومن المشاهير أيضاً عمروس بن فتح المساكني النفوسي من علماء الطبقة السادسة، "بحر العلوم الزاخر، المبرَّز أوَّل السباق وهو الآخر، الضابط الحافظ المحتاط المحافظ... وهو الذي لولاه لاندثر مَعْلَمُ المذهب وانطمس، وعفا أثرُه واندرس، لتمسكه ببقية الحوائج العظائم، وتصحيحه ما قُيّد على الخراساني أبي غانم، وله مصنفات في الفروع والعقائد زانتْ فوائدُها الصدورَ والقلائدَ "[5].

ج- الشيخ أبو منصور إلياس والي جبل نفوسة وهو من علماء الطبقة السادسة [6] وغيرهم كثير، وقد اهتم هؤلاء العلماء بتعلّم جميع العلوم الشرعية وتعليمها في الحلقات والمجالس: كالتفسير، والحديث، والفقه، هذا للمتقدمين من طلبة العلم، أما المبتدئون فعندما يلتحقون لأول مرة بالحلقة كانوا يحفظون ما تيسّر لهم من سور القرآن الكريم [7].

د- ومنهم أيضا الشيخ أبو محمد عبد الله بن الخير ـ رحمه الله ـ كان " عالماً كبيراً فاضلاً أثيراً، كانتِ الأمثال تضرب به، فمنها أنهم كانوا يقولون: من ضيّع كتاباً كمن ضيّع خمسة عشر عالماً مثل عبد الله بن الخير"[8]، وكان فقيهاً مفتياً ملهماً أُثر عنه قوله نقلاً عن العلماء:" إذا كان النجس يتوجّه من تسعة وتسعين وجهاً، والطهارة من وجه واحد غلبت الطهارة، فما جعل الله علينا في الدين من حرج"[9].

ه- وقد ضبط الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي ـ رحمه الله ـ" قوانينَ وأنظمةً صارمة لتسيير الحلقة، فقسَّم العُزَّاب - جمع عزَّابي من العزوب عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، وخدمة الصالح العامِّ. ولا تعني العزوبة عن الزواج - إلى ثلاث مجموعات هي بمثابة المراحل التربوية المعروفة في عصرنا:

- الأصاغر - المرحلة الابتدائية
- الأواسط - المرحلة الثانوية
- الأكابر - المرحلة الجامعية [10].

---

[1]- ينظر: السير الشمّاخي، 1: 143.
[2]- معجم أعلام الإباضية بالمغرب، 1: 184.
[3]-المصدر السابق، 1: 185.
[4]- طبقات المشائخ بالمغرب، 2: 106.
[5]-المصدر السابق، 2: 136،135.
[6]- ينظر: جبل نفوسة, 2: 147.
[7]- ينظر: المصدر السابق,2: 378.
[8]- المصدر السابق, 2: 130.
[9]- المصدر السابق, 2: 131.
[10]- ينظر: الإباضية في موكب التاريخ، 1: 374، 375.

ويورد الوسياني تفاصيل أكثر بقوله: "وكان أبو بعقوب محمَّد بن يدر الزنزفي في أمسنان بجبل نفوسة عادته يجلب العزَّاب المبتدئين من أهاليهم، ويعلِّمهم الأدب والسير، فإذا وصلوا الشيخ محمَّد بن سُدرين الوسياني أقرأهم القرآن والإعراب والنحو، وإذا وصلوا الشيخ أبا عبد الله محمَّد بن بكر علَّمهم الدين والعلم والأصول"[1]. ولم يهمل الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي تعليم النساء مقتديا في ذلك بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظَّم لهنّ مجلسا، يتعلَّمن فيه، ويستفتينه في أمور الدين والحياة[2].

وقد أولى علماء نفوسة عناية خاصة بالتفسير؛ لأن فهم القرآن تقوم عليه أحكام كثيرة، فهو دستور المسلمين ومنهج حياتهم، وقد برع فيه أبو المنيب محمد بن يانس، قال: "وأنا تفسير القرآن، قد أخذته عن الثقات"[3]، وذلك عند إرساله إلى تاهرت لمناظرة المعتزلة.

كما أنّهم أتقنوا فنون العلوم الشرعية واهتموا بالفقه، فأنجب الجبل العديد من الفقهاء والعلماء الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية تعليم المجتمع وتطويره، وتحمّلوا مشقة الفتوى والقضاء، ومنهم الشيخ أبان بن وسيم الويغوي ـ رحمة الله عليه ـ "طود العلم الشامخ وحصن الورع الباذخ"[4]، أجازه شيخه أبو خليل البدْرَكلي بالفتوى قائلاً له: "اعْلمْ أنَّ لكل زمان نذيراً، وأنت نذير زمانك يا أبان، افتِ الناس بما لا بأس به من الرخص يكون ذلك لهم عذراً عند مولاهم"[5].

أمّا علم أصول الفقه فقد برز فيه عدد غير قليل من علماء نفوسة، وهم كلّ عالم بلغ مرتبة الاجتهاد، ومنهم: الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد ويغُو ـ رحمه الله ـ الذي تميز بنبوغه في علم الحديث والفرائض والقضاء، كما تميّز باجتهاده وبقدرته على الإفتاء في النوازل، والمسائل المعقّدة التي لم يسبق أن أفتى فيها غيره. قال الدرجيني: "...وله في النوازل والأسئلة المعضلات أجوبة بديهة كاشفة إشكال المشكلات، وكان متى قصده آملٌ فاز بالأمل، لأنه جمع بين العلم والعمل"[6].وكذلك الشيخ حسنون بن أيوب "فقيه أوانه، وعمدة مكانه وغير مكانه، علقت عنه مسائل وفتاوى في كثير من النوازل"[7].

أمّا الشيخ سليمان بن زرقون فقد كان ذلك الفقيه العابد الفهم لعلل الأحكام وفقه المقاصد، ومن كان كذلك فهو بالتأكيد ضليع في علم أصول الفقه، إذ لا يصل إلى هذه المرتبة في الإفتاء إلّا من كان متمكناً من هذا العلم الأصيل [8].

وفيما يخص علوم الحديث برز الشيخ عمروس بن فتح – رحمه الله – "بحـر العلـوم الزاخر... الضابط الحافظ، المحتاط المحافظ "[9]. ومعلوم أنّ الوصف بالحافظ يختصّ بمن برع في علم الحديث، فالشيخ عمروس كان من علماء الحديث، وما زاده تألّقاً وتميّزاً نسخُهُ لمدوّنة أبي غانم الخراساني عندما قدم من المشرق قاصدًا تيهرت فمرّ بالجبل[10].

وكان قاضياً فطناً عادلاً، لمع ذكاؤه عند تحقيقه في قضية استباحة قطّاع الطرق لقافلة من القوافل وادعائهم امتلاكها، "فعزل عمروس أهل الرفقة ناحية، وجعل يسألهم واحداً واحداً، عن رَحله وجَمَلته وعدده وصفته وعلامة متاعه، وقيّد مقالة كلّ واحدٍ منهم أيضاً بشهادة، ثم أمر بحمل الحمولة واستخراج

1- معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، 28.
2- ينظر: المصدر السابق.
3- طبقات المشائخ بالمغرب, 1: 156.
4- المصدر السابق، 2: 117.
5- المصدر السابق, 2: 130.
6- المصدر السابق، 2: 141.
7- المصدر السابق، 2: 155.
8-المصدر السابق، 1: 110.
9- المصدر السابق، 2: 136.
10- ينظر: المصدر السابق.

ما فيها، فوجدوا وفق ما قال أصحاب الرفقة، ووجدوا قول القطّاع مختلفاً، مخالفاً، متناقضاً، فقال عمروس لإلياس: هؤلاء أصحاب الرفقة، وأولئك أضيافك، فأنزلهم. يعني بذلك حبسهم"[1]. هذا في علم الحديث ومصطلحه.

أما علم الكلام فقد أولى به النفوسيون عناية خاصة، وكذلك اعتنوا بعلم الجدل والحوار والمناظرة، وكان مهدي النفوسي مقدّما في علم الكلام، ومناظراً فذّاً، أخذ العلم عن حملة العلم الخمسة، وبرع في المناظرة فانتدب لمناظرة المعتزلة بتاهرت، وقد وصفه الدرجيني بـأنّه: "قدم الجدال، ومِدْرة النضال، المقدّم في علم البرهان والاستدلال، المحتج على إمكان الممكن واستحالة المحال، وعلى الفرق بين الحلال والحرام ...الرادع لقيام أهل البدع والضلال"[2].

وبرز في هذا العلم أيضاً أبو نوح سعيد بن زنغيل الذي كان عالماً بفنون المناظرات، والرّدّ على أصحاب المقالات [3].

أما علم اللغة والأدب فقد أولاهما النفوسيون عناية واضحة، حتى أنه إذا لم يتمكن الدارس منهم من علم اللغة تجده يرتحل إلى القيروان بتونس ليأخذ على شيوخها الفصاحة والبيان واللغة، ومن هؤلاء: الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي مؤسس نظام العزابة. فقد تعلم علوم الشريعة في نفوسة على يدي الشيخ أبي نوح سعيد بن زنغيل، وأبي زكرياء بن أبي مِسور وغيرهما، وتعلم الفصاحة والبيان واللغة في القيران [4].

ومن خلال هذا العرض المختصر نجد أن علماء نفوسة اهتموا كغيرهم من الإباضية بجميع العلوم الشرعية. ولم أجد في كتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني ذكراً لاهتمام علماء نفوسة بعلوم الدنيا، كالطب والهندسة والحساب وغيرها من العلوم التي لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

هذا عن العلوم التي برع فيها النفوسيون، أما عن أثرهم في مجتمعاتهم، فلا شك أن العالم يؤثر في البيئة التي يعيش فيها على قدر صلاحه وتقواه وعبادته وطاعته لله، فهو إسلام يمشي على رجلين ونجم يسطع لينير الدرب أمام السالكين، فلا بد أن يأخذ نفسه بالحق ويقوّمها على الصدق ويغذّيها بالورع؛ ليكون بعمله داعياً إلى الحق قبل قوله؛ ولئلّا يكون في مخالفته للحقّ حجّة عليه. وهذا ما كان عليه علماء نفوسة في طبقات الدرجيني، فالدرجيني لا ينفكّ يصفهم بالعلم والتقوى، والورع، والطاعة لله، والاجتهاد في العبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواضع، والزهد. فها هو يصف أبا ميمون الجيطالي بالرغبة في الآخرة والترغيب فيها، والزهد في الدنيا، والاجتهاد في العلم، والجد في العبادة ومنافع العباد والتفقد لمواضع المعروف [5].

أمّا الشيخ محمد بن يانس أبو المنيب فهو "المجاهد لنفسه، المتصّف بالمآثر في أهل جنسه، ذو الدعوات المجابة والخشوع والإنابة وكرامات تضاهي المعجزات، يُخلُّ بالدنيا، ويفزع لأعمال الطاعات... قيل: وكان دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يتفقّد المزارع والجنات والطرقات محتسباً ثواب الله، فمتى وجد أحداً همّ بإفساد شيء من ذلك أو بإدخال ضرٍّ على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك، وحـــال بينـــه وبينه"[6].

1- ينظر: طبقات المشائخ بالمغرب، 2: 137.
2-المصدر السابق، 2: 127.
3- ينظر: المصدر السابق، 1: 149.
4- ينظر المصدر السابق، 1: 169.
5- طبقات المشائخ بالمغرب, 2: 107.
6- المصدر السابق، 2: 109،110.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحي بن يونس – رحمه الله – لا يقلّ عن زميله بالدعوة والعلم ورعاً ولا زهداً فهو "ممّن أخذ نفسه بالعهود والجهد ساعياً في الصلاح، داعياً إلى طرق الفلاح، هادياً إلى الرشاد، مغيراً للفساد، مُتحيّزَ القطريات أين تصوب [1]، ليس لمناهل برّه غورٌ ولا نضوب... كان من عبادته إذا صلّى صلاة المغرب وصل ما بينها وبين صلاة العشاء بالركوع والسجود حتى يصلي العشاء ثم ينفل ما اعتاد التنفّل به، ثم يوترُ"[2].

هذه الصفات التي وصف بها الدرجيني الشيوخ الثلاثة السابق ذكرهم أجدها عند كل من ترجم لهم الدرجيني في طبقاته، وهذا يشير إلى أنّ الإباضيّة لا يعدّون الشيخ عالماً إلا إذا اتّصف بهذه الصفات وغيرها من صفات المؤمنين؛ ليكون فعلاً أهلا للحقّ والاستقامة، وليحمل الرسالة المنوطة به في الأخذ بالكتاب وبيانه للناس وعدم كتمانه. قال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[3].

فالعلماء بحكم وعيهم بمضامين الوحي الإلهي، وفهمهم لأحكام الشريعة ومقاصدها، واطلاعهم على نصوص الكتاب والسنة ومعرفتهم بشروحها، وقدرتهم على حل معضلات الحياة على ضوئها، تعظم مسؤوليتهم كلما اشتدت الحاجة إليهم، ولا شك أن مهمة العلماء لا تنحصر في الفتاوى التي تصدر عنهم في بيان الحلال والحرام، وبعض الحدود والعقوبات، وبعض أحكام المعاملات، بل تتعدى ذلك إلى تثبيت العقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية والأخلاقيات التي تشعر المسلم بأهمية الإسلام في ملء ثقافته، وإشباع روحه، وتحديد هويته، ورسم معالم حياته الخاصة والعامة . وقد كان علماء نفوسة صورة حية لتجسيد كل هذه المعاني، فقد كانوا خير دعاة، وكانوا حقاً أهل قوة وإرادة، وزهد في الدنيا ورغبة في الآخرة، وتقوى وصلاح واستقامة وعبادة.

المطلب الثاني: آثار علماء نفوسة المترجم لهم في الكتاب

علماء نفوسة كانوا كالشعلة المضيئة بآثارهم التي حفظتها لهم كتب التاريخ والتراجم على مرّ العصور والدهور؛ وذلك نتيجة لاجتهادهم واهتمامهم بالتأليف والنسخ كغيرهم من الإباضية.

وَرَدَ في كتب التراجم أنّ لعمروس بن فتح عدّة تصانيف في الفقه والعقيدة، منها كتابه المسمى بـ "العمروسي" والمُعنْون بـ "الديْنُونَة الصافية" كما أنّ له "الرسالة في الرد على الناكثة وأحمد بن الحسين"[4]، وكان له الفضل في المحافظة على المذهب ونشره بنسخه " مدوّنة " أبي غانم الخرساني عندما مرّ بالجبل قاصداً تاهرت [5].

وجاء في طبقات الدرجيني أن لسليمان بن زرقون، وسليمان بن ماطوس "تآليف في علوم الدين، كم قد هدى الله بهما من المهتدين، ونفى بهما من فساد المفسدين"[6]. ولكن لم يذكر الشيخ أبو العباس أحمد الدرجيني أسماء تلك المؤلفات ولا فروع العلم التي صنّفت فيها.

أما أبو سهيل الفارسي النفوسي فقد " كانت له تآليف كثيرة باللسان البربري، وكان أفصح أهل زمانه، فدوّن لأهل الدعوة اثنا عشر كتاباً وعظاً وتاريخاً، نظمها بالبربرية احترقت كلّها أو جلّها"[7]، وكان أكثر هؤلاء المصنّفين شهرة أبا عبد الله محمد بن بكر النفوسي الذي صنّف تآليف كثيرة، وأكثرها في

---

[1] ـ قال المحقق: كذا في النسخ، طبقات المشائخ بالمغرب: 2: 132.
[2]- المصدر السابق،2: 132،131.
[3]- سورة آل عمران من الآية 187.
[4]- ينظر: السير، الشماخي. 1: 222 .
[5]- ينظر: طبقات المشائخ بالمغرب. 2: 136.
[6]-المصدر السابق. 2: 167.
[7]- معجم أعلام الإباضية قسم المغرب. 1: 318 وينظر طبقات المشائخ بالمغرب. 2: 169-171.

الحجج والبرهان، وحفظ عنه في الأخلاق حِكَم قد خلّدت في بطون الأوراق، وأشهر مؤلفاته "قواعد السّير" ويقصد بها الشيخ الدرجيني "ديوان العزابة" الذي لولاه لانطمس المذهب الإباضي واندرسَ.

تلك المصنفات كانت غيضا من فيض مما حوته كتب التراجم، التي أشارت إلى وجود الآلاف من المصنفات في ديوان نفوسة[1].

ومن خلال ما سبق نجد أنّ علماء نفوسة كانوا مثل غيرهم من علماء الإباضية، يعتنون بالتأليف والنسخ في جميع فروع العلم الشرعي وأصوله، ولكن في الحقيقة لم أجد في كتاب الطبقات للشيخ الدرجيني ما يروي غلّتي؛ إذ أنّه لا ينفك يشير إلى كثرة مؤلفات النفوسيين، ولكنّه مقلٌّ في ذكر تلك المصنّفات وتسميتها، ويكتفي بالإشارة إلى وجود مصنّفات ويصفها بالكثرة لهذا العالم أو ذاك فقط.

هذا هو منهجه الذي سار عليه في تراجمه لكافّة العلماء الذين ترجم لهم في كتابه، النفوسيين منهم وغير النفوسيين؛ علماً بأنه وردت إشارة في كتب الطبقات تدلّ على أن هناك مكتبة تحوي الآلاف من الكتب في جبل نفوسة، وقد زار هذه المكتبة أبو العباس محمد بن عبد الله بن بكر النفوسي سمّاه "الديوان" ومكث فيها أربعة أشهر يقرأ الكتب لا ينام إلا سويعات قليلة بين الصبح والفجر، ووجد في ذلك الديوان ثلاثة وثلاثين ألف كتاب من المشرق ناهيك عن كتب المغرب[2].

تُرى أين آثار هذه المكتبة؟ وأين هي تلك المؤلفات؟ وإذا أتلف أغلبها فأين الباقي؟ فنحن هنا نتكلم عن الآلاف من المؤلفات، لا المئات ولا العشرات.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، وبعد رحلة ممتعة مع عبق التاريخ، وصحبة العلماء في طيقات الدرجيني، توصّلت من خلال هذه الدراسة إلى مستخلصات هي نتاج اجتهاد متواضع لتحليل نصوص الإمام الجليل الدرجيني فيما يتعلق بسير أعلام نفوسة الذين ترجم لهم في كتابه الطبقات، فإن وُفّقت في بعضها فلله الحمد والمِنّة، وإن كانت الأخرى فهذا جهدي وحسبي أنّي بشر، وهذه المستخلصات هي نتائج هذا البحث وهي:

1. يرجع الفضل لعلماء نفوسة في الحفاظ على استمرارية المذهب الإباضي بعد سقوط إمامة الظهور وإحياء الإمامة بعد اندثارها.
2. كان الشيخ الدرجيني ـ رحمه الله ـ في ترجمته لأي عالم من العلماء يوثّق عملية رواية العلم والدين، ويؤرخ لذلك الزمان الذي عاش فيه العالِم، فهو لا يؤرخ للعالِم فحسب، بل يسجل سِيَر المشائخ، ويصوّر حياتهم اليومية، ويبيّن عقيدتهم وأخلاقهم ونبوغهم العلمي والفقهي من خلال تصوير مشاهدَ من حياتهم، ومواقف عاشوها لنصرة مبادئهم.
3. ساهمت نفوسة بدور بارز في الحركة الثقافية والعلمية الإسلامية، فقد خلّف النفوسيون المئات من الكتب في مختلف فنون العلوم الشرعية، وساهمت حلقات نفوسة العلمية في انتشار العلم، فكان الجبل يعجّ بالطلبة القادمين من مختلف مواطن الإباضية في بلاد المغرب. وإذا كانت تاهرت كما قال بعض المؤرخين معدن الدواب والكراع فإن الجبل معدن العلماء ورجال الفكر.
4. اهتمّ علماء نفوسة كغيرهم من علماء الإباضية بجميع فروع العلوم الشرعية وبرعوا فيها، فكان منهم المفسرون، والمحدّثون، والفقهاء، والقضاة، والولاة. فقد كانوا في مرتبة سامقة من مراتب العلم، فلم يتخلفوا عن أقرانهم من علماء الإباضية في المغرب ـ هذا إن لم نحكم لهم بالسبق ـ وذلك لأن علماء جربة ووارَجلان أخذوا علمهم على شيوخ نفوسة في الفترة ما بين القرنين الثاني والخامس، أما بعد ذلك فقد رحل علماء نفوسة من الجبل بحثا عن بيئة تتناسب مع ما هم عليه من الفكر والعلم والاستقامة بعد أن

---

[1]- ينظر طبقات المشائخ بالمغرب. 2: 169.

[2]- ينظر المصدر السابق.

حلّ الفساد بالجبل محل الصلاح، فالعالم الصالح في بيئة فاسدة كاللؤلؤ الصافي بين الروث العفن عافانا الله وإياكم.

5. كان للنفوسيين السبق في إنشاء نظام الحلقة الذي تطور إلى نظام العزابة، وما كان لهذا النظام من فضل في الحفاظ على تماسك المجتمع الإباضي وحفاظه على المذهب إلى وقتنا الحاضر.

6. وأخيرا أوصي نفسي وإخواني الباحثين والباحثات، النفوسيين منهم وغير النفوسيين، الإباضيين منهم وغير الإباضيين، بالتأسّي بأخلاق هؤلاء الأخيار من سلفنا الصالح في استقامتهم واجتهادهم في العبادة والتعلم والتعليم، كما أوصي بالبحث عن مصنفاتهم ومخطوطاتهم وتحقيقها تحقيقا موضوعيا مفيدا، والبحث في مؤلفاتهم منهجيا وموضوعيا؛ لإحياء موات هذه الأمة، فعلينا نحن تقع المسؤولية العظمى في الدعوة ونشر العلم.

7. يقول أبو حامد الغزالي : "اعلم أنّ كل قاعد في بيته أينما كان، فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس، وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي" حتى قال: " وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه، وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين ، وإلا عمَّ الحرج الكافة أجمعين، أما العالِم فلتقصيره في الخروج ، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك العلم " [1].

المراجع:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. الإباضية في موكب التاريخ ـ تأليف: على يحي معمر ـ تحقيق: الحاج سليمان بن الحاج إبراهيم بابزبز ـ مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ـ سلطنة عمان ـ ط: 3 ـ 1429 هـ ـ 2008 م
3. إحياء علوم الدين ـأبو حامد الغزالي ـ المكتبة الشاملة.
4. جبل نفوسة ـ مسعود مزهودي ـ المكتبة الشاملة.
5. طبقات المشائخ بالمغرب - تأليف: أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت 670هـ) ـ تحقيق: إبراهيم محمد طلّاي ـ ط: 2 ـ دون تاريخ.
6. كتاب السيرـ أحمد بن سعيد عبد الواحد الشماخي ـ المكتبة الشاملة.
7. مسند الشهاب القضاعي ـ المكتبة الشاملة.
8. معجم أعلام الإباضية قسم المغرب، مجموعة من الباحثين ـ المكتبة الشاملة.
9. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعة جي ـ المكتبة الشاملة.

[1]ـ إحياء علوم الدين، الغزالي، 3: 369.